يا أيها العرب!

للأستاذ علي الطنطاوي

يا أيها المستمعون إليّ، مقبلين عليّ، ويا أيها السامعون وهم معرضون، يلهون في القهوات أو يتبخترون في الطرقات، إلى العالم في مكتبه، والعامل في معمله والمرأة في بيتها، والطفل في مدرسته إلى من يتفيأ الظلال من جنات الشام، ويترشف الزلال من نيل مصر، ومن يتنعم بفيء النخيل على شط دجلة، ومن يضحى بشمس القفار من فلوات الحجاز، ومن شرق من العرب ومن غرب ...

يا أيها العرب جميعاً.. هل تدرون ما هو أعظم خطب يمكن أن ينزل بنا. وما هي أدهى مصيبة يخشى أن تصيبنا؟ لا، ليست الاستعمار الأجنبي، فسنجاهد حتى لا يبقى في ديار العروبة، ومنازل الإسلام غاصب أجنبي، وليست مشكلة إسرائيل، فسنحارب حتى نسلم (إسرائيل) إلى عزرائيل، ولكن المصيبة أن نكفر بأنفسنا، وأن نجهل أقدارنا، وأن لا نعرف فوق الأرض مكاننا، وأن نحسب أننا خلقنا لنكون أبداً أضعف من الغربيين، وأجهل منهم، وأن ننسى أن أجدادنا لما خرجوا يفتحون الديار، كانوا أقوى منا على عدونا، وأنهم أقدموا بسيوف ملفوفة بالخرق على عدو كان أكثر عدداً وأقوى عُدداً وأضخم عمراناً، وأكثر علماً ومالاً. فظفروا به، وانتصروا عليه. وأن الأيام دول، والدهر دولاب، يهبط العالي، ويعلو الذي هبط، ويذلّ العزيز، ويعزّ الذي ذلّ، وإن دار علينا الدهر حيناً، فافترقنا وتباعدنا، ولفّنا بعد إشراق النهار ليل مظلم، أغمضنا فيه عيوننا، وأغمدنا فيه سيوفنا، فلم نبصر اللص يدخل علينا، ولم نَشْهَدْ إليه لنردّه عنا، وحسبنا لطول الليل أن لا صباح له، فقد طلع الآن الصباح، وانقضى الليل، وهبّ النائمون يمشون إلى الأمام ...

إلى الأمام! وإلا فما هذه الثورات، وما هذه الوثبات؟ وما هذه الوحدة في العواطف، حتى لتهتز الشام لكل حادث في العراق، وتغضب مصر لكل عدوان على الشام، ويثور الشرق لنصرة المغرب، وتقوم مراكش لتأييد أندونسيا، وتهبّ الباكستان للدفاع عن فلسطين؟

إلى الأمام! وإلا فما لمصر، صارت فيها الفكرة العربية ديناً وكانت من قبل تعيش عامتها في ظلام المزلة، وتحيا (بعض) خاصّتها في ضلال الفرعونية؟

إلى الأمام! وإلا فهل كانت تظن فرنسا ويظن عبيدها أن سيقطع الله دابرها من سورية ومن لبنان، ومن لبنان يا أيها السادة! وهل كان يظنّ الانكليز أنهم سيضطرون إلى الخروج من وادي مصر، وأن العراق سيقطع اليد التي تحاول أن توقع معاهدة ليس فيها خير العراق، وهل كان يظن أحد أن الهند، الهند ستتحرر وأنها ستكون في الدنيا دولة إسلامية فيها مئة مليون.

إن هذه المظاهرات، وهذه الثورات، حركات السائل الناري في باطن الأرض، إنها الهزّة، ثم تكون الرجفة، ثم يكون الزلزال. ثم ينفجر البركان بالحمم، وتفتح أبواب جهنم، فلا يقف أمامها شيطان من الشياطين، ولو كان له مال (حايم)، ودهاء (جون بول)، وقوة (الدب)، وإقدام (العم سام).

لسنا اليوم كما كنا من خمسين سنة، كنا نخاف أوربة لأننا نجهل ما عندها، وكنا نخشاها لأننا ما عرفناها، أما اليوم فقد هتك الستار، وكشفت الأسرار، وعرفنا أن هذه المدنية مدنية الظفر والناب وأنها حضارة الذئاب...

فيا أيها العرب، فوق كل أرض، وتحت كل سماء، لقد جئت الليلة، ليلة هجرة محمد، أستحلفكم بقبر محمد، وبالمسجد

(*) أذيعت من دمشق ولم تنشر

الأقصى ، وبعهد عيسى ، وبأمجاد الماضي ، وبآمال الآتي ، أن تنفروا بربكم ، وأن لا تعتمدوا إلا على نفوسكم ، وأن تعلموا أن النازلات امتحان للهمم ، وتمحيص للأمم ، وأن لا تكفروا بالبطولة التي صبها في دمائكم يا أيها العرب ، سيد العرب محمد ، وأن تأخذوا من سيرة محمد الذي اجتمعتم الليلة للاحتفال بذكراه دروس البطولة والعزم والنضال .

وأن تذكروا موقف محمد يوم كانت المدينة على حافة الخطر وكانت معرّضة لأقوى هجوم يمكن أن تقوم به جزيرة العرب ، وكان على الطريق إليها ثلاثة جيوش فيها عشرة آلاف مقاتل ، والمسلمون كل المسلمين يومئذ ثلاثة آلاف ، وأن المدينة قد تسقط بين ساعة وساعة ، ويقضى على الإسلام ، فماذا صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وماذا صنع المسلمون ؟

هل تحيروا حتى لا يدرون ماذا يصنعون ، فجعلوا يرتجلون الخطط ، ويبتدعون الآراء ؟ هل كفوا أيديهم عن العدو وأطلقوا ألسنتهم عليه ، فرموه بالخطب والتصريحات ؟ هل أضاعوا الفرصة وأمضوا الأيام في الاجتماعات والمؤتمرات ؟ هل اختلفوا وتنازعوا ؟ وهل فكر الأغنياء في أن يستأجروا بيوتاً في الأرياف ليفروا إليها ، إذا نزلت الملمات وكانت (الغارات) ؟

لا يا سادة . لم يفكر في الفرار إلا (المنافقون والذين في قلوبهم مرض) . أما المسلمون فكانوا يعلمون أن المسلم الذي يفرّ من بلده إذا دهمه العدو لا يكون مسلماً ، وأن الإسلام يفرض القتال عند ذلك على الرجال والنساء فرض عين كفرض الصلاة .

لا ، ولم يعتكف رسول الله في مسجده ، ليدعو عليهم ، ولو دعا لاستجاب الله دعاءه ، ولكنه أراد أن يأتي البيوت من أبوابها ، ويجر النتائج بأسبابها ، ويعلم هذه الأمة كيف تصنع إذا دهمتها المخاوف ، وحاقت بها الأخطار ، وشرع بحفر الخندق والخندق هو (الملجأ الفني) من (غارات) تلك الأيام ، ولم يكن العرب يعرفون الخنادق بل هي من طرائق العجم في قتالها .

وكذلك كان محمد يعدّ لعدوه أحدث المخترعات الحربية ، ويفاجئه بـ (أسلحة جديدة) لم يسمع بها . لم يأمر بحفر الخندق وهو مقيم في داره ، هادئ هانئ مستريح ، بل عمل معهم ، بيده قبل أيديهم ، حمل التراب حتى غطى بطنه التراب ، وجاعوا فجاع معهم ، وربط على وسطه من الجوع الحجر ، وكان أقواهم يداً ، وأثبتهم قلباً ، عرضت صخرة لم تعمل فيها المعاول ، ولم تؤثر فيها سواعد الرجال ، فلجأوا إلى محمد ، فلم يستطع أن يكسرها إلا ساعد محمد ، وهو يعمل بلا قميص شأن الرياضي القوي ، لا شأن هؤلاء (المشايخ) الذين يمشون ورؤوسهم مَحنيّة ، وأطرافهم متخاذلة ... كأنْ قد هدّهم المرض !

أعدّ الخندق لـ (الدفاع السلبي) ، ثم خرج مع المسلمين لـ (الدفاع الإيجابي) ، وولى على المدينة ابن أم مكتوم ما اختاره لعصبية أسرة ، ولا لجامعة حزب ، ولا لصلة قرابة ، بل لأنه أحق بالولاية وأولى بها ، ولم ينازعه أحد ولايته لأن الأمة التي تشتغل بالجزئيات ، وتتنازع على الكراسي ، والعدو على الأبواب لا تستحق الحياة .

وأحاط العدو بالمدينة ، واشتد الخطب وعظم البلاء ، وقلّت الأقوات ، وجاءت في خلال ذلك صدمة الظهر بأن الحلفاء من يهود قريظة ، خانوا العهد ، وأخلفوا الوعد ، وغلبت عليهم نجاسة طباعهم ، ونذالة أخلاقهم ، صفة اليهود أبداً ، أينما كانوا وحيثما وُجدوا . فلم يفارق محمداً ثباته وعزمه ، وبعث يتحقق الخبر ، وأمر رسوله أن يعلن إن وجده كذباً لتقوى العزائم ، وتشتد الهمم ، وإن وجده صدقاً لحن له به ، ولم يجهر به الناس ، لئلا تكون الأسرار العسكرية حديث المجالس ، وأسمار السمار .

وأحسّ بالأمر المنافقون ، وما تخلو أمة من (منافقين ...) ومن دعاة الشر وبناة الهزيمة ، فأعلنوا ما كان مضمراً ، و(زاغت الأبصارُ ، وبلغتِ القلوبُ الحناجرَ ، وتظنونَ بالله الظنونَ ، هنالك ابتُلي المؤمنون وزُلزلوا زلزالاً شديداً . وإذْ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرضٌ : ما وعدَنا اللهُ ورسولُه إلا غُروراً . وإذْ قالتْ طائفةٌ منهمْ يا أهل يثرب لا مُقام لكمْ فارجعوا ، ويستأذنُ فريقٌ منهمُ النبيَّ يقولون إنَّ بيوتنا عورةٌ ، وما هي بعورة ، إنْ يُريدونَ إلا فراراً) . واجتمع على المسلمين العدو القوي والبرد والجوع وخيانة الحليف وتثبيط المنافق ، فقضى رسول الله على (الانقسام الداخلي) وصبر على الحصار ، ثم صمد

الهجوم ، واستعمل كل سلاح ، لحفر الخندق ، وحارب بالسيف وحارب بالحيلة . فكان الظافر في الحرب الدفاعية ، وفي الحرب الهجومية . وفي حرب السياسة ، وفي حرب الأعصاب . وكان له النصر المؤزّر .

واذكروا بعد ذلك كم جُزنا من امتحان ، وكم نجونا من خطوب . يوم كرّ علينا الشرق كله بهمجيته وكثرته وقوته جيوش التتر يقودها الكلب الكلِب : هولاكو . فرت كالسيل العارم ، فاجتاحت دول الإسلام (وما كان ينبغي أن يكون للاسلام إلا دولة واحدة) ؛ حتى إذا عبثت بالخلافة ، وداست بغداد ، وفعلت في دنيا المسلمين الأفاعيل ، ولم تبق منها إلا ولايات متباعدات ضعيفات . وقف لها شيخ واحد . شيخ لم يتخذ الدين سُلّماً للدنيا ، ولا الصلاح شبكة المال . ولم يكن همّه مشيخة يزهى بها ، ولا ضياع يقتنيها ، ولا سيارة يركبها . ولا وظيفة يحظى بها . لم يكن يمدُّ يده للناس يقول قبلوها واملأوها مالاً ، ولا يقول تصدقوا بأموالكم ليأخذ هو الصدقات ، قد احتقر الدنيا في جنب ما عرف من نعيم الآخرة ، وهان عليه أهلها ملوكهم وسوقتهم لما وقر في نفسه من عظمة الله شيخ اسمه العز بن عبد السلام .

أثار هذا الشيخ مصر ، حتى انتصر جيش مصر الضعيف على جيوش التتر القوية ، وحفظ اللهُ به في عين جالوت الدين والدنيا ، وأنقذ به الإسلام والحضارة . وما انتصر جيش مصر إلا بالإيمان الذي أثاره في النفوس هذا الشيخ .

واذكروا يوم كرّ علينا الغرب كله . يقذفنا بالجنود من كل لون . ويرمينا بالأسلحة من كل نوع . وكنا دويلات وإمارات متخاذلات متقاتلات . فنصرنا الله على الغرب كله برجلين اثنين وما انتصرا إلا بالإيمان والإخلاص ، وإن ترِكة صلاح الدين الأيوبي بطل الدنيا ، كانت ستة عشر ديناراً ، لم يورث غيرها !

* * *

يا أيها المستمعون جميعاً . سألتكم بالله : انسوا لحظة واحدة جاهكم ومطامعكم ، وحبكم وبغضكم ، ومشاغل بيوتكم وأسواقكم وفكروا في نفوسكم ، فيما كان عليه أجدادكم ، وما انتهت إليه حالكم . هل صنعتم مثلما صنع النبي يوم الخندق ، هل عندكم لليوم مثل الثالث صلاح الدين . هل لديكم مثل الشيخ عز الدين هل أعددتم لليوم العبوس عدته . هل أحسستم إلى هذه الساعة أنكم في حرب ؟

يا ناس !

هل تعيش أمة في الحرب مثلما كانت تعيش في السِّلم . لا تنقص شيئاً من لهوها وتبذيرها وغفلتها ، وإضاعتها أموال العامة وأموال الخاصة فيما لا ضرورة له ، ولا جدى منه ، وإنفاقها في (الكماليات) التي يذهب ثمنها إلى عدوها ، فيرجع إليها رصاصاً وقنابل تنزل على دورها وصدورها ؛ هل تختلف أمة على الصغائر ، وتتنازع على المناصب ، والعدو قد غشيها في أرضها ؟ هل يتفق في الأمم الحية المحاربة قرش واحد إلا في شراء النصر ؟

يا ناس !

إني أكون خائناً لديني ولأدبي إذا أنا غششتكم في يوم هجرة نبيكم ، أو كتمت الحق عنكم . إنكم طالما تنكرتم لدينكم ونسيتم أقداركم ، واحتقرتم نفوسكم ، وأضعتم سلائقكم الخيّرة ، وخلائقكم النبيلة ، في تقليد الأوربيين في التافه من شئونهم ، وفي إعظام الأوربيين والرعب منهم . ولا سبيل لكم إلى النصر إلا بأن تعودوا فتتخلقوا بأخلاق التمثال التي خلق بها أجدادكم نبيكم ، أجلوا كل اختلاف بينكم إلى نهاية هذه الحرب ، وأرجئوا كل نفقة لا ضرورة لها ، ولهو لا داعي إليه . وواجهوا العدو صفاً واحداً ، وقلباً واحداً ، قد وقفتم على الظفر قواكم كلها وأموالكم ، واعلموا أنه ان ينفعكم والله منصب ولا مال ، إن تركتم عدوكم يقوى بضعفكم ، ويشتد بتخاذلكم ، ويزيد بنقصكم إن الدنيا مقبلة على غمرات سود ، ومرتقبة أحداثاً جساماً ، وستكون معركة لا يخرج منها إلا البطل . فيا أيها العرب : تيقظوا وانتبهوا واتقوا ربكم وعودوا إلى خلائقكم . واعرفوا أقداركم ، واعتمدوا على نفوسكم ، واجتنبوا (إن فعلتم) أنكم منصورون منصورون منصورون ...

يستحيل أن تغلبكم كلاب يهود !

(دمشق) علي الطنطاوي